العادات الاجتماعية (المفهوم، النشأة، الوظائف)

د.هند العقيبة*

هلا قرطالي**

(تاريخ الإيداع 31 / 3 / 2021. قبل للنشر في 1 / 7 / 2021)

□ ملخّص □

استعرضنا في بحثنا هذا مفهوم العادات الاجتماعية من خلال مجموعة من المقاربات اللغوية والمنهجية والعلمية. كما عمدنا إلى تناول بعض آراء العلماء والباحثين فيما يتعلق بتاريخ نشأتها وتصنيفاتها. وكشفنا عن أهم الوظائف التي تحققها العادات في المجتمعات التي تمارس فيها والتي تجلّت في الوظيفة الضبطية، التعليمية، التنبؤية، الاقتصادية، الجمالية، النفسية. واستخدمنا المنهج الوصفي التّحليلي لتوصيف هذه الظاهرة التي تعد من أهم الظواهر الموجودة في مجتمعاتنا كافة. من أجل تقديم بعض المقترحات التي من شأنها الحفاظ عليها من الاندثار والضياع.

الكلمات المفتاحية: العادات الاجتماعية، الوظيفة الضبطية، الوظيفة الاقتصادية، الوظيفة التعليمية، الوظيفة التنبؤية، الوظيفة الجمالية، التراث الشعبي.

* مدرسة، قسم علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

** طالبة دراسات عليا(ماجستير)، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية.

Social Habits (concept, origins, functions)

Dr. Hend Al Okeba*
Hala Kortale**

(Received 31 / 3 / 2021. Accepted 1 / 7 / 2021)

□ ABSTRACT □

In our research, we reviewed the concept of social customs through a set of linguistic, methodological and scientific approaches. We have also addressed some of the opinions of scholars and researchers regarding its history of origin and classifications. We uncovered the most important functions that customs achieve in the societies in which they are practiced, which are manifested in the controlling, educational, predictive, economic, and aesthetic function. We used the descriptive and analytical approach to describe this phenomenon, which is one of the most important phenomena in all our societies, in order to present some proposals that would preserve it from extinction and loss.

Key words :social habits, The exact function, The economic job, The educational position, Predictive function, Aesthetic function , folklore.

* **Assistant professor, Department of sociology, faculty of Art, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
** **postgraduate student , Department of sociology, faculty of Art, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة

يشكّل التراث الشعبي أرقى أشكال التعبير عن تجارب وخبرات الشعوب وثقافتها ويمنحها قيماً حضارية وثقافية واجتماعية، فهو يعد ثروة ثقافية ومعرفية بميادينه المتنوّعة التي تشمل التقاليد والمعتقدات والطقوس والأغاني والأمثال الشعبية والعادات الاجتماعية. إذ يشير مصطلح العادات الاجتماعية إلى الممارسات الاجتماعية التي تتضمن أنماط السلوك المتكرر، والمكتسب اجتماعياً، يمارسها أفراد المجتمع لإشباع حاجات معينة، وهي حصيلة أفكارهم عبر التاريخ، تتوارث عبر الأجيال على مرّ الزمن، ممّا يضفي عليها طابع من القدسية والاحترام لتصبح بمثابة قانون راسخ في النفوس، لا يكاد يخلو منها أي مجتمع على اختلاف طبقاته وفئاته، بحيث تعد المحرك الأساسي لسلوكهم وتصرفاتهم فكل مجتمع له عاداته التي تعمل على تحقيق جملة من الوظائف المتنوعة التي تخدم أفراده. وتتشعب العادات لتشمل مختلف نواحي الحياة الاجتماعية كافة وتستند في ذلك إما إلى إرثٍ ثقافي و معرفي أو عقائدي أو قد تكون انعكاساً لتجارب وخبرات عاشها أفراد المجتمع، وعن طريق التجربة اكتشف الإنسان عادات جيدة حققت له السعادة والراحة وأشبعت رغباته فتبناها، كما اكتشف عادات سيئة جلبت له الألم فابتعد عنها. فمنها ما يتعلق بعادات الطعام واللباس والمناسبات وآداب السلوك ، ومنها ما يتعلق بعادات دورة الحياة (الولادة – الزواج – الموت) ولا يخلو جانب من جوانب الحياة من العادات والتقاليد المرافقة له.

إشكالية البحث:

تعد العادات مادة غنيّة للتعرّف على ثقافة أي شعب من الشعوب لأنّها تشكل بمجموعها مخزون ثقافي كبير لمنظومة القيم والمعتقدات والمعارف والأخلاق نظراً لما تحمله من أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية في المجتمع الذي تمارس فيه وهذا ما جعلها محطّ اهتمام للعديد من الباحثين الأنثربولوجيون. فقد أثبتت العديد من الدراسات الانثروبولوجية ودراسات الحياة الشعبية الدّور الهام الذي تؤديه العادات في حياة الجماعات الإنسانية وفي خلق أرضية حضارية وفكرية مشتركة بينهم، وفي فهم سلوك الإنسان في إطار تفاعله مع بيئته وتأثّره بها. بالإضافة إلى أنّها تشكل هوية المجتمع، التي ترسم ملامحه وتعبّر عن أخلاقه وقيمه وشخصيته وطريقة تفكيره ونظرته للوجود بسلسلة من المظاهر والممارسات الاجتماعية التي تضبط وتوجه سلوكه العام وبالتالي تعطيه طابعه الخاص الذي يميّزه عن غيره من المجتمعات. من هنا فإن دراسة العادات والتقاليد تعد دليلاً ثقافياً للتعرف على سمات وخصائص أي شعب من الشعوب ونظرته للحياة لأنها مرآة صادقة تعكس ثقافة المجتمع وفلسفة وجوده وقيمه.

إنّها دستور الشعوب غير المكتوب المتمثل بمجموعة من المعايير الاجتماعية و الأخلاقية التي تلزم الفرد بإتباعها والخروج عنها يعرضه للعقاب النفسي الذي يتجلى في فقدان احترامه لذاته أو للعقاب الاجتماعي الذي يتمثل في السخرية والسخط والنظرة الدونية من قبل الآخرين. وبالتالي ينجم عن ذلك أن يجد الفرد نفسه أمام مشكلة وهي عدم توافقه مع محيطه و أفراد مجتمعه. ونتيجة لكل ما سبق فقد تمّ اختيار هذا الموضوع للتّعرف على ماهيّة العادات باعتبارها مكون هام من مكوّنات أي ثقافة مجتمعية وأهم الخصائص التي تميزه عن باقي مكونات هذه الثقافة، وتاريخ نشأتها، وتصنيفاتها، بالإضافة إلى البحث في أهم الوظائف التي تحققها العادات في أي مجتمع.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث:

إنّ أهمية أي موضوع تنطلق من مدى فعاليته و ما يحقّقه من فوائد في الإطار الذي يعمل فيه، وبدوره فالعادات تكتسب أهمية كبيرة نظراً لإلمامها بسائر مجالات الحياة الاجتماعية فهي مكون هام من مكونات البناء الثقافي للمجتمع، متأصّلة في حياة الإنسان وفي مشاعره وحركاته وتحيط به في كل مناسباته ومعاملاته، إذ تمدّ الأفراد بأنماط السلوك المقبول والضروري للحياة الاجتماعية وفق معايير الثقافة السائدة بما يضمن وينظم تفاعلهم السليم في المجتمع ويعينهم ويسهل عليهم حياتهم وسبل معيشتهم فنحن نتصرف وفق ما تقرّه وتمليه علينا عادات مجتمعنا وتبعاً لآداب السلوك العامة. كما أنّها تعد من أهم المصادر لمعرفة واقع وثقافة أي شعب انطلاقاً من كونها ترصد الواقع بأبعاده (الاجتماعية والنفسية والثقافية).

***أهداف البحث:** نهدف في بحثنا إلى:

1. التعريف بمفهوم العادات الاجتماعية، و الكشف عن أهمّ الخصائص التي تتميز بها.
2. البحث في أصول وتاريخ نشأة العادات. وأشهر تصنيفات الباحثين لها.
3. محاولة التعرف على الوظائف (الاقتصادية–الجمالية–التنبؤية–الضبطية–التعليمية) التي تؤديها العادات الاجتماعية في المجتمع.

***منهجية البحث:** اعتمدنا في بحثنا على المنهج التحليلي، للتعرف على ظاهرة العادات الاجتماعية وتفسيرها، للتوصّل إلى نتائج متعلّقة بالبحث من أجل بلورة بعض المقترحات والتوصيات بما يخدم بحثنا.

***الدراسات السابقة:** تعدّدت الدراسات التي تناولت موضوع العادات باعتبارها أهم أقسام التراث الشعبي لأي مجتمع فهي مكوّن أساسي من ثقافته وجزء لا يتجزأ من هويته.

أولاً: دراسة في عام(2018) في الجزائر، للدكتور عبد اللطيف حني والأستاذة سهام سلطاني، بعنوان "عادات الاحتفال بدورة الحياة في منطقة الطارف–مرحلة الميلاد أنموذجاً–دراسة ثقافية"، تمحورت الدراسة حول عادات الاحتفال بدورة الحياة في منطقة الطارف الّتي تعبر عن تراث هذا الشعب والتي تعكس صورة عن حياته، وقد هدفت الدراسة إلى تشخيص الممارسات الاحتفالية لعادات مرحلة الميلاد باعتبارها تشكّل مرحلة مهمة في رحلة الإنسان عبر الحياة والتي ينتقل من خلالها من مرحلة إلى أخرى عبر ممارسات احتفالية كلامية أو فعلية، مع كشف الجانب التراثي لهذا الشعب المتمثل في الأغاني الشعبية. وقد توصّلت الدراسة إلى نتائج منها:1–الدّور الكبير الذي تلعبه العادات في الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه باعتبارها فعل اجتماعي ذات قوة معيارية تتطلب الامتثال الاجتماعي.2–تعكس الاحتفالات المتعلّقة بهذه العادات مدى التضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع كما تعمل على تنظيم سلوك أفراده من خلال إيماءات فردية وجماعية.3–يحفل التراث الشعبي في هذه المنطقة بالطفل لأنه بداية الحياة وهو في ميلاده ونموه يرمز لتجدد الحياة.

ثانياً: دراسة في عام(2011) في الجزائر، بإشراف اسعد فايزة ، بعنوان"العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة–مقاربة سوسيو انثربولوجية لعادات الزّواج والختان مدينتي وهران وندرومة نموذجاً. تناولت الدراسة العادات الخاصة بالزّواج والختان في وسطين مختلفين "وهران و"ندرومة". بهدف معرفة مدى تكيّف العائلة في هذين المجتمعين لهذه العادات بين الماضي والحاضر من خلال دراسة مظاهر الثبات والتغيّر في هذه العادات.

واستندت الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي، المنهج المقارن، والمنهج الوظيفي واستخدمت أداة المقابلة على عينة بلغت20مبحوث. وتوصّلت الدراسة إلى أنّ العائلة في الوسطين حاولت الحفاظ على عادات الزواج والختان، وتمكّنت من تكييف ماضيها وحاضرها وذلك بإعطائها طابع العصريّة وفق ما تعيشه العائلة من تغيرات في بنيتها ووظيفتها. وكما ظلّت العادات مستمرة وإن مسّ المجتمع بعض التغيير فهي تغيّرت ولكن بطابع يتناسب مع الظروف الاجتماعية للعائلة وللمجتمع. ومن أهم العوامل التي ساهمت في تغيّر هذه العادات:الهجرة، وسائل الاتصال، انتقال الحياة وتحوّلها من البساطة إلى التعقيد لاسيّما مع ظهور الحضرية الّتي أدّت إلى تغيّر في الأنماط السلوكية مع تغيّر بنية الأسرة من ممتدّة إلى نووية.

أولاً: مفهوم العادات الاجتماعية:

كثيراً ما يشاع تداول مصطلح العادات الاجتماعية في أدبيات علم الاجتماع والتربية وعلم النفس والفلسفة، وغيرها من العلوم .ويتكرّر هذا اللفظ بشكل يومي على ألسنة العامة بمفاهيم مرادفة له كالآداب، الموضة، الفنون، السنن، الأعراف، المناسبات، الأعياد. إذ تشير العادات إلى سلوكيات اجتماعية يكتسبها الأفراد منذ ولادتهم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي يتلقوها من محيطهم الاجتماعي، وتلازمهم طوال حياتهم، وتمارس في مواقف ومناسبات معينة، وتنتقل بالتقليد عبر الأجيال بشكل تلقائي وسرعان ما تتحوّل إلى موروث ثقافي يصعب تغييره مع الزمن ويلزم كل من يخرج عنه بالعقاب.

يعدّ مفهوم العادة من المصطلحات الأساسية المستخدمة في الدراسات الفلكلورية والاجتماعية والنفسية، فمن الناحية اللغوية :

يشير لفظ عادة إلى: جمع عادات وعوائد وعاد وعيد، هي نمط من السلوك أو التصرف يعتاد حتى يفعل تكراراً من غير جهد. (مسعود،1992، ص533).

وهنا تظهر العادة على أنّها تكرار الفعل والمواظبة عليه بشكل دوري حتى يصبح مألوفاً.

و خلال مداومة الأفراد على ممارسة أنماط سلوكية معينة بشكل دائم ومنتظم سرعان ما تتحوّل هذه الأنماط بشكل تلقائي مع مرور الزمن إلى عادات راسخة تستمد قوّتها من تأييد ورضا أفراد الجماعة لها و التزامهم بها. لذلك فإن معظم الدارسين قبلوا تعريف العادة كقوة معيارية، وكظاهرة تتطلب الامتثال الاجتماعي والطاعة العارمة، بما يجعلها تفوق قوة القانون .فيعرّف فيكمان العادة بأنّها ذات طبيعة معيارية تستمد سلطتها رأسياً(أي تاريخياً). وأفقياً (أي اجتماعياً). ويقول توليس إنّ العادات متطلبات سلوكية تعيش على ميل الفرد لأن يمتثل لأنواع السلوك الشائعة عند الجماعة، وكذلك على ضغط الرفض الجماعي لمن يخالفها. (هولكتراس، 1972، ص248).

ومن وجهة نظر علم النفس فالعادة تعني" استعداد مكتسب دائم لأداء عمل من الأعمال حركياً كان أم عقلياً أم خلقياً– بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد في الجهد" (راجح، 1968، ص101). وباعتبارها شكلت الوحدة الأساسية للسلوك المكتسب لذلك كانت موضع اهتمام معظم نظريات فهم السلوك، وبدوره فقد أولتها المدرسة السلوكية_ التي تنكر وجود استعدادات فطرية لدى الفرد_ اهتماماً خاصاً، وحاولت تفسيرها وتحديد دورها في تحقيق التعلم الفعال، وأهمية الدوافع والتعزيزات في تنميتها. (طه، د.ت، ص272–273).

و العادة : "هي ما اعتاد الناس على القيام به من سلوك في مختلف الأحوال ومنذ فترة طويلة من الزّمن وهو ليس سلوكاً مستحدثاً وليس فردياً، والعادة تتضمن التكرار و القبول العام والانتشار أمّا غير ذلك فقد يصنّف في نطاق المبادرة والسلوك الفردي". (المطور، 2007، ص69).

وهذا التعريف يتفق مع تعريف "ادوارد سابير" في أنّ العادة الاجتماعية "مصطلح يستعمل للدلالة على مجموع الأنماط السلوكية التي تحتفظ بها الجماعة وتترسمها تقليدياً (by tradition) وهذا ما يميّزها عن" النشاطات" الشخصية التي يقوم بها الفرد". (دياب، 1980، نقلاً عن سابير، ص106).

وعن رأي مالينوفسكي في العادة يقول:"هي أسلوب مقنن من أساليب السلوك يتم فرضه تقليدياً على أفراد المجتمع المحلي". (الحسن، 1999، ص404).

ومن خلال كل ما سبق يتضح لنا بأن ليست كل الأفعال التي يقوم بها الأفراد يطلق عليها عادات بل هي تتطلّب توافر معايير وخصائص معينة في الفعل كي ندعوها بذلك، فعليه يمكن أن نستخلص بعض خصائص العادات.

1. فعل اجتماعي: أي أنّها تنشأ من اتفاق جمعي يصب في مصلحة المجتمع ككل لأنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه فلا بدّ أن يمارس هذه العادات في إطار عملية التفاعل مع غيره من الأفراد ضمن المجتمع، فمن خلال العقل الجمعي تصنع الجماعات عاداتها الخاصة بها والتي هي جزء من ثقافتها. فالإنسان بمفرده غير قادر على ذلك .

2. عامة ومنتشرة في كل المجتمعات وعلى اختلاف مناطقها الجغرافية، و درجات تطورها، ولدى جميع الناس بمختلف فئاتهم وأعمارهم وأجناسهم وطبقاتهم الاجتماعية. ومن وجهة نظر أخرى هناك من يعتقد أن العادات لا توجد إلاّ في المجتمعات القديمة و التقليدية ومقرونة بتفكير الإنسان البدائي ذو العقلية الغير منطقية، وهنا نخالف هذا الرأي لأن العادات غير مشروطة بوجود زماني لها فهي لا تتوقف ولا تموت عند لحظة تاريخية معينة، وهي توجد في أيّ مجتمع تقليدي كان أو معاصر، متخلف أو متقدم، فهي مكون هام من مكوّنات الثقافة المجتمعية وتنمّ عن عمق حضارة الشعوب، لذلك فهي تحافظ على كيانها المستقل في أي مجتمع مهما بلغ تطوره. وخير مثال على ذلك المجتمع الياباني الذي لا يزال يحافظ على تقاليده الاجتماعية والتراثية وعاداته العريقة ويتمسك بها رغم تطوره التكنولوجي والعلمي." فمازال الياباني يجلس متواضعاً" على حصير "التاتامى"، وقد جمع قدميه وساقيه تحته، ويتناول مشروبه الوطني المصنوع من الأرز"الساكية"، ويسعد وهو يشاهد مصارعة "السومو" بكل غرابتها وتقاليدها الدينية. ثمّ يسير الفرد الياباني في الشارع وقد وضع كمامة بيضاء من القماش على أنفه حتى لا ينقل عدوى الانفلونزا للآخرين". (شبانة، 1996، ص7).

3. الاستمراريّة والتوارثيّة باعتبارها موروثات ثقافية تنتقل عن الآباء والأجداد بطريقة اجتماعية إما عن طريق التقليد أو المحاكاة أو عملية التنشئة الاجتماعية. وفي هذا الإطار يوضح ريل Riehl "إنّ السلوك يتحول إلى عادة عندما يثبت من خلال عدة أجيال، ويتوسع وينمو، ومن ثم يكتسب سلطاناً" (الجوهري1998، 43).

4. تلقائيّة: أي أنّها تمثل الفطرة الاجتماعية عند الإنسان فهي ليست غريزية بل مكتسبة، إذ يأتي الفرد إلى الحياة ويجدها معدّة من قبل أفراد جماعته بشكل مسبق، ومن ثمّ يتلقاها من محيطه في قوالب جاهزة بعملية التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي فيمارسها ويتمسك بها عن غير وعي وإرادة وبدون حتّى أن يبحث عن سبب ممارسته لها، أو يفكر في تغييرها أو الشذوذ عنها.

5. تمثّل قوّة مجتمعية كقوة القانون فمن خلال تجاربنا وخبرتنا بالحياة نتعلّم أيّة سلوكيات لا يسمح بها المجتمع وينهى عنها، وأيّها مقبولة اجتماعياً وملزمين بإتباعها، فمن ينتهكها يعتبر منتهكاً لحرمة المجتمع ككل، لذلك فهي

تستوجب ردود فعل جماعية متمثلة بالاستهجان والرفض والعقاب بالنسبة لمخالفيها، لا بل وفي بعض المجتمعات قد لا نبالغ إذا قلنا بأنها تحظى بسلطة تتفوق على سلطة القانون ويعبّر عن ذلك ماكيفر و بيج بقولهما " بالتأكيد لا يستطيع القانون أن ينجح بصفة دائمة إذا قاومته عادات اجتماعية قوية تمتدّ جذورها إلى الماضي البعيد." (ماكيفر، ييج، د.ت، ص355).

وخير مثال يوضح هذه النقطة عادة الأخذ بالثأر التي لا تزال منتشرة بكثرة في صعيد مصر و الّتي تصل بالفرد إلى درجة أن يضحي بنفسه خوفاً من العار الّذي يمكن أن يلحق به في حال لم يلتزم بهذه العادة الّتي فرضها عليه مجتمعه.

6. تتمتع بالثبات وقابلية التطور والتغير معاً، فالثبات مستمر في جوهر العادة كعادات الولادة والعرس والموت، وغيرها. أمّا التطوّر والتغيّر فيبدو في مظهر العادة، فمظاهر العرس في حوران أو دمشق مثلاً قبل خمسين عام، اختلفت كثيراً عن مظاهر العرس فيها اليوم، وهذا التغيّر مرتبط بتطوّر المجتمع وتطوّر الوسائل وأساليب العيش ومدى التأثيرات الداخلية والخارجية الوافدة بتأثير الهجرات والاحتكاك الثقافي مع الثقافات المغايرة وتأثير وسائل الاتصال والحروب فعلى سبيل المثال دخل الطربوش بتأثير الأتراك، والبرنيطة وربطة العنق بتأثير الاستعمار الأوروبي، و المتة بتأثير المهاجرين إلى أمريكا الجنوبية. (البكر، 2009، ص136).

7. ومن سمات العادات أيضاً أنّها قد تكون انعكاساً لمعتقدات الأفراد و تصوّراتهم المشبعة ببقايا التفكير الأسطوري والخرافي في ذاكرتهم عن أسرار بعض الظواهر ممّا يفصح بدوره عن عقليتهم ونظرتهم للحياة وعوالم الكون كعادة ارتداء اللباس الأسود في الجنازة وذلك لعدة أسابيع أو شهور أو سنوات باعتباره اللباس الرسمي الّذي يعبر عن حالة الحزن والحداد على الميت، ودليل احترام لروحه، وقد انتشرت هذه العادة في كثير من البلدان.وهذه العادة تعود في حقيقتها إلى الاعتقاد، "أنّ الخوف من الميت جعل الأسود لون الحداد، وهو تقليد قديم جداً.اعتقد الإنسان الأول أنّه إن لم يتوخ اليقظة والحذر فإنّ روح المتوفى ستدخل وتتملّك الأحياء يقول العلماء إنّ الإنسان الأبيض البدائي كان يدهن جسده باللون الأسود في الجنازات كي يحجب نفسه من الأرواح". (باناتي، 2003، ص54).

وتجدر الإشارة إلى أنّ مصطلح العادات والتقاليد يستخدم كمترادفات يحل أحدها محل الآخر فهما وجهان لعملة واحدة ويصبّان في ذات المعنى، إذ يشتركان بعدّة صفات كالتلقائية والاجتماعية والطواعية والتوارثية، مع وجود بعض الاختلافات الّتي تتجلّى في درجة الإلزام والدّوام والثبات لكلّ منهما إذ نجد درجة الإلزام في العادة أقوى ممّا هي عليه في التقليد ومخالفتها تستوجب عقاب مادي ومعنوي، أمّا من حيث درجة الثبات فالتقاليد أثبت من العادات ويمارسها الإنسان بدون تفكير للحفاظ على نمط ثقافي معين. لذلك تشكّل رواسب ثقافية أدّت وظائف معينة ولبت حاجات وأشبعت رغبات للإنسان، وتغييرها يحتاج لحلّ جذري إمّا بهدم أو تغيير نظام ثقافي أو اجتماعي، بعكس العادات التي قد تتغيّر بفعل الاحتكاك بعوامل أخرى مباشرة وغير مباشرة.

ونضيف إلى ذلك فارق بسيط وهو ما يؤكّده فريدريك معتوق الّذي يرى في العادات والتقاليد طبيعة واحدة، أمّا الاختلاف بينهما يتمحور في المسار والمحور الذي تتخذه كل منهما، فبينما تتمحور العادات حول العنصر الثقافي ذي الارتباط الشخصي كالمأكل والملبس والمشرب، فإنّ التقاليد تتمحور حول العنصر الثقافي ذي الارتباط العام كتقاليد الاحتفال بالأعياد. (معتوق، 1986، ص132).

ثانياً: نشأة العادات الاجتماعية:

يزاول الناس مراراً وتكراراً مجموعة من الممارسات والأنماط السلوكية منذ الصّغر ويعتادون عليها لتصبح مع مرور الوقت عادات سلوكية لا تفارقهم في كافة مناحي حياتهم اليومية ومناسباتهم الاجتماعية المختلفة، ولتغدو مظهراً أساسياً من مظاهر وجودهم ويصبح من الصعب التخلي عنها، فعلى الرغم من غرابة بعضها، وجهلهم بحقيقة بعضها، غير أنّنا لا يمكن أن ننكر أنّها تنبع من صميم المجتمع وواقعه وتنطوي على اعتقاد الأفراد بفاعليتها في تحقيق الرّاحة والخير والمنفعة والابتعاد عن كل ما يسبب الأذى لهم.

وهذا ما يدفعنا للتساؤل عن تاريخ نشأة العادات الاجتماعية؟

وللإجابة على هذه التساؤلات سوف نستعرض أراء بعض العلماء والباحثين التي تعدّدت حول نشأة العادات الاجتماعية.

إنّ العادات الاجتماعية كمصطلح لم يظهر بدايةً في معظم المؤلفات الحديثة التي كتبت بالإنكليزية في علم الاجتماع والانثربولوجية تحت عنوان Social Habits بل تحت عنوان (folksways) أي الطرق الشعبية بمعنى طرائق التدريس وأوّل من استعمل هذا المصطلح كمرادف للعادات الاجتماعية الأمريكي وليام جراهم سيمنرSumner، وقد كان أستاذاً للعلوم السياسية والاجتماعية بجامعة (ييل) yale بالولايات المتحدة الأمريكية، وكتب عام 1906 مؤلفاً ضخماً عن العادات الاجتماعية يقع في اثنين وتسعين وستمائة صفحة، وتم نشره تحت عنوان رئيسي هوFolkways ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الاصطلاح الأكثر شيوعاً عند دراسة العادات الاجتماعية. (دياب، 1980، ص115).

ويرى آخرون أنّ العادات الاجتماعية تنشأ عن طريق التجربة الإنسانية والتكرار، إذ يتّبع أفراد الجماعة الإنسانية أنماط سلوكية مختلفة تتّسم بالعشوائية والمحاولة استجابةً لظروف تتطلّبها المواقف الحياتية وبتكرار هذه الأنماط يظهر لهم الخطأ من الصواب فيختارون منها ما يتناسب مع أسلوب حياتهم و ما يتوافق مع ميولهم ورغباتهم وما يحقّق لهم الطمأنينة والراحة والمنفعة، ويبتعدون عمّا يسبب لهم الأذى والمتاعب والضّرر وما ينعكس سلباً على حياتهم، ممّا يدفعهم إلى إتباع الأساليب السليمة والتمسك بها وتكرارها حتّى تثبت وتصبح بمرور الزمن عادة راسخة في النفوس تنتقل عبر الأجيال وتحاط بهالة من القداسة والاحترام من قبل الجماعة باعتبارها قانون يضبط المجتمع ويحافظ على سلامته. وفي هذا الصّدد يؤكّد جميل صليبا "أنّ العادة استعداد مكتسب يحصل للنفس بتكرار الفعل واستمرار التغير". (صليبا، 1982، ص40).

ومن جانب آخر هناك من يرى أنّ العادات الاجتماعية وليدة التقليد والمحاكاة، فبحكم أنّ الفرد بفطرته يميل إلى العيش مع أبناء جنسه ولا يستطيع أن يحيا بمفرده إشباعاً لرغبته إلى الاجتماع، فهو ينتمي لجماعة وينخرط فيها ويكتسب منها أساليب عيشها ونظمها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها، فيتأثر بمن يعايشهم ويحاول تقليد وإتباع سلوكياتهم وصفاتهم وتصرفاتهم إرضاءً لرغبات دفينة وحاجات ضرورية. أي بمعنى أن يحاكي الفرد ما يفعله الغير ويسير على منواله بطريقة لاشعورية فيقوم بتقليدهم في الأقوال والآداب والتصرفات. يقول دوركهايم " أعطينا اسم المحاكاة إلى الحاجة التي تدفعنا إلى أن نضع أنفسنا في موضع الانسجام مع المجتمع الذي نشكل جزءاً منه وإلى أن نتنبأ من أجل هذه الغاية طريقة التفكير أو طريقة العمل العامتين، من حولنا فعلى هذا النحو، نحن نتبع الموضات والأعراف. (دوركهايم، 2011، ص127).

وبنفس الطريقة يبرز ابن خلدون أهميّة عامل المحاكاة في ترسيخ العادات فيذكر:

"أنّ النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه. إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيم، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلبٍ طبيعيّ، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الإقتداء". (ابن خلدون، 2004، ص283).

و هنا يظهر الأثر الواضح للعامل النفسي في المحاكاة في أنّ المغلوب في اللاوعي وفي الجانب اللاشعوري يحاول دائماً تقليد الغالب في زيه وتصرفاته وسائر أنماطه السلوكية.

ختاماً نستطيع أن نستخلص بأنه من الصعب إدراك تاريخ زمني تتبعي محدد لنشأة العادات الاجتماعية فهي ليست وليدة عصر معين، ولا تحدث بين يوم وليلة، بل تحتاج لزمن طويل كي تثبت وترسخ في المجتمع فهي طويلة الأمد وبالتالي فإنها لا تزول بزوال الفترة الزمنية التي نشأت فيها وهذا ما يميّزها عن الموضة التي تستمر لفترة قصيرة الأمد.

ثالثاً: تصنيفات العادات الاجتماعية:

ظهرت محاولاتٌ عديدة من قبل علماء الفلكلور والاجتماع والأنثروبولوجيا والباحثين لتصنيف العادات الاجتماعية وتميّزت تلك المحاولات بالتّنوع والاختلاف. وهذا يعود لتشعبها وشمولها لمختلف ميادين الحياة اليومية إلاّ أنها لم تتفق على رأي موحد في تصنيفها فكل باحث انطلق من منظوره الخاص واهتمامه الشخصي وحسب تخصصه وتبعاً لتراث بلده.

- فقد اقترح الدكتور محمد الجوهري تصنيفاً مفصلاً للموضوعات التي يشملها ميدان العادات والتقاليد على النّحو الآتي:

1. دورة الحياة:

- الميلاد: الحمل– الوضع– الوليد– السبوع– التسمية– تنشئة الطفل– البلوغ.
- الزواج: الخطوبة– الشبكة– الزفاف– بيت الزوجية– فض البكارة– الصباحية– التأخر في الزواج – زواج الأقارب– الرجل والمرأة بعد الزواج.
- الوفاة: استعداد الحي للموت– العلامات التي تنبئ بوقوع الموت– سلوك الميت والمحيطين به قبيل وبعد الموت– إعلان الوفاة– الغسل– الكفن– النعش– الدفن– الجنازة– صلاة الجنازة– الجبانة– الحوش– القبر– عملية الدفن– المأتم– قيود الحداد – مناسبات زيارة القبور– الزيارة نفسها– الرحمة– مناسبات تقبل العزاء– مصير الأرملة.

2. الأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام، وتشمل:

- الأعياد الدينية: رأس السنة الهجرية وأوائل الشهور العربية– عاشوراء– مولد النبي– شهري رجب وشعبان– شهر رمضان– العيدين– الحج
- الأعياد القومية: وفاة النيل– شم النسيم– ليلة النقطة– العيد القومي– عيد الأسرة – عيد العمال.
- المواسم الزراعية: كالعادات المرتبطة بمواسم الحصاد مثلاً

3. الفرد في المجتمع المحلي، وتشمل:

- المراسيم الاجتماعية: كمراسيم الاستقبال والتوديع والعلاقات بين الكبير والصغير، والغني والفقير، والذكر والأنثى، والعلاقات بين الفرد والمجموع، وبين طبقات ومهن معينة كالحانوتية والحلاقين
- العلاقات الأسرية: وفيها يوضّح مركز الأب والأبناء والأم، والعلاقة بين الأكبر والأصغر
- اللائق وغير اللائق

- الموقف من الغريب والخارج على العرف والمألوف .
- العادات والمراسيم في المأكل والمشرب .
- الروتين اليومي: ويراعى هنا البرنامج اليومي لنشاط الفرد، والعادات الشائعة بالنسبة للتوقيت اليومي مثل عادة القيلولة .
- فضّ المنازعات كمجلس العرب وحقّهم وما إلى ذلك
- التّحكيم ويظهر الجانب الإعتقادي فيه مثل طقس البشعة. (الجوهري1983، ص23،25).

- تصنيف "أحمد أمين" قاموس العادات والتقاليد و التعبيرات المصرية:

تناول القاموس في محتواه العادات والتقاليد والعقائد و التعبيرات المستخدمة لدى المصريون في مختلف مناحي حياتهم الاجتماعية لا في جميع عصورها، وإنّما في العصر الحديث في زمنه أو قبله بقليل فقط، اعتقاداً منه أن دراستها في العصر القديم مهمة يعنى بها المختصون في علم الآثار وأمّا دراستها في العصور الوسطى إنّما تليق بمختصين في تاريخ مصر. وقد قام بترتيبها حسب حروف الهجاء وليس حسب الموضوعات التي تتناولها بداية بحرف الألف وبدأ بحرف الألف بالإبرة وعلى الأخصّ عقائد المصريون فيها والأمثال التي قيلت فيها وكما أوضح أي من هذه العادات مستحدث وأي منها موروثٌ من عهد المصريون القدماء وما هي الظروف الاجتماعية التي سببتها كما بيّن دلالتها على الطّور الاجتماعي الذي كانت تعيش فيه البلاد والتي انتقلت منه وسبب هذا الانتقال، إيماناً منه بأهمية هذه الجوانب من الأدب الشعبي من حيث فنها ومن حيث دلالتها على حالة الشعوب وأخلاقها وعقليتها، وبأهمية التعبيرات الشعبية بكونها تمثل نوع من أنواع البلاغة التي لا تقل شأناً عن اللغة الفصحى وعلى الرّغم من أنّ اللّغة الشعبية لا تنطق بالقاف مطلقاً إنّما تنطق بها همزة، إلاّ أنه كتب في التعبيرات الهمزة قافاً لأنّ القاف أسهل في الكتابة من الهمزة. (أمين، 1953، ص8–9).

وقد قام بعض الباحثين أمثال ريتشارد دارسون بالجمع بين العادات والمعتقدات في قسم واحد على اعتبار أنّ العادة في النهاية ليست إلاّ تعبير عن معتقد معين، كاعتقاد المرء بالسحر واعتقاده أنّ حدوه الحصان يمكن أن تبطل مفعول السحر هو الذي يجعله يقدم على ممارسة سلوكية معينة. فالعادة هنا تنطوي على فعل مادي ملموس**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**، وعلى معتقد مشترك هو الإيمان بالسحر ومسبباته وإمكانية تجنبه. ويلاحظ دارسون أنّه غالباً ما ترتبط العادات ارتباطاً وثيقاً بمعتقدات عميقة الجذور عند ممارستها وتعتبر في حد ذاتها نوعاً فلكلورياً مستقلاً. (الجوهري، 1998، ص45).

- تصنيف العادات إلى سلبية وايجابية.

- عادات سليمة ومفيدة: هي التي تبغي سلامة المجتمع وسعادة الناس فيه، لها أهميتها في حياتهم لأنها تسهل إشباع حاجاتهم وتحقيق رغباتهم، وهي تمثل الحاضر والماضي فهي عامّة شائعة فيما بينهم ولها احترامها لأنّها تنزل من الأجيال السابقة، ومن هذه العادات نذكر على سبيل المثال: طرق تحية الغير باليد أو بالكلام، وطرق استقبال الزائرين وطرق توديعهم، وآداب المأكل والمشرب والملبس والحديث. (عزت، 1955، ص57). وبدورها هذه العادات تسهم في تطوّر ورقي المجتمع وتقدّم صورة جميلة عن ثقافته وحضارته، وتساهم في بناء علاقات بنّاءة بين أفراده وتحقّق التماسك الاجتماعي بينهم.

- عادات شاذّة وضارّة: هي التي ينهي المجتمع عن فعلها والتي يأخذ بها بعض أفراده، فهي عادات ممنوعة وغير مشروعة ومن يأخذ بها ينظر إليه كأنه خارج على الإجماع في المجتمع وأنّه لا يحترم إرادة الجماعة، من هذه العادات

عادة الإدمان على الخمر، وعادة الغش في الامتحانات. (عزت، المرجع ذاته والصفحة). وهذا النوع من العادات يشوّه صورة المجتمع وتساهم في زعزعة نظامه كما أنّه يؤثّر على صحة الإنسان ويبعده عن محيطه الاجتماعي ويجعله منبوذاً وغير محبّب به، ويؤدي إلى تراجع في مستوى العلاقات الإنسانية.

- تصنيف العادات حسب دوامها وبقائها:

1. عادات دائمة: كالعادات المتعلقة بشهر رمضان، الصوم عند المسيحيين، عمل كعك العيد ليلة الوقفة، عادات الزواج، عادات الدفن، وغيرها.
2. عادات مؤقتة: كالموضات التي تنتشر بشكل خاص لدى شريحة الشباب في مجتمعاتنا العربية الذين يقومون بتقليد الغرب من (مشاهير وفنانين ولاعبين وغيرهم من الشخصيات المعروفة عالمياً) وذلك في مظهرهم الخارجي وسلوكهم ولباسهم دون معرفة خلفياتهم الثقافية وما تنطوي عليه من عادات وقيم وتقاليد والتي تختلف تماماً عن ثقافة مجتمعاتنا العربية.

وفي هذا الصدد يقول سابير sapir " يمكن التّمييز بين العادات الاجتماعية ذات الأمد الطويل والعادات الاجتماعية ذات الأمد القصير التي تعرف باسم موضات، وتبدأ الموضة عادة بواسطة فرد معين أو جماعة معينة من الأفراد، وفي حالة ما إذا استمرت هذه الموضات فترة كافية بحيث يبدو من غير المهم استرجاع أصل هذا النمط السلوكي أو مكانه الأصلي، فإنّها تصبح عادات اجتماعية. فلبس قبعة عادة اجتماعية، أمّا لبس نوع معين من قبعات فهو موضة تخضع للتغير السريع نسبيا." (الجوهري،2006، ص40). إذاً فالعادات الاجتماعية متعددة وكثيرة لا نستطيع حصرها لأنّها راسخة في مسيرة حياة الإنسان وفي كافة مجالاتها، فهي تمسّه في عمله اليومي، في مأكله، ومشربه، وملبسه، وفي طريقة تعامله مع محيطه من عائلة– أصدقاء– غرباء.

وبالنّتيجة يمكننا القول إنّه على الرّغم من جهود الباحثين المبذولة في تصنيف العادات الاجتماعية والتي حظيت باهتمام واسع على المستوى العربي والعالمي إلاّ أنّه لا يوجد تصنيف متفق عليه جامع مانع، وهذا يعود لتنوع خبراتهم الشخصية وبيئاتهم إضافة إلى اتساع مجالات العادات التي تشمل واقع الحياة الاجتماعية ككل. فمنهم من صنّفها حسب سيادتها وانتشارها و استمرارها وحسب تسلسلها الأبجدي، ومنهم من حاول أن يجمع بينها وبين ميادين أخرى من ميادين التراث الشعبي.

ولكن يمكننا الأخذ بتصنيف الجوهري لأنّه يعد بمثابة دليل شامل يمكن الرجوع إليه في الدراسات الفلكلورية و الانثربولوجية التي تتمحور حول عادات وتقاليد الشعوب، وذلك لتنوّعه وإلمامه بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية.

رابعاً: وظائف العادات الاجتماعية:

تحتلّ العادات الاجتماعية مكانةً بالغة الأهمية داخل المجتمع الإنساني الذي تنشأ فيه فهي تدخل حياة أفراده من كافة مجالاتها باعتبارها جزءاً أساسياً من ثقافته وتنبع من واقعه وبيئته و تعبّر عن قضاياه العامة، وتشكّل شبكة تواصل رئيسية يتواصل من خلالها الفرد مع الآخرين بأشكال من السلوك المقبولة والمتّفق عليها اجتماعياً، إذ تحقّق هذه العادات بمجموعها العام و بمواضيعها المختلفة جملة من الوظائف المهمة والمتنوعة، فهي تؤثّر بدورها على حياة المجتمع و تعين أفراده في ممارسة أعمالهم و تعبر عما يجول في أفكارهم وتهيئهم للتكيف مع محيطهم الذي يعيشون فيه، كما تيسر أمور حياتهم فترسم لهم المبادئ العامة والخطوط النظرية للسلوكيات التي يجب أن يتبعونها في تعاملهم مع الأحداث والوقائع اليومية.

من هنا يمكن أن نجمل أهمّ الوظائف التي تحقّقها العادات الاجتماعية :

1. **الوظيفة الضّبطية التنظيمية:** حيث تقوم العادات بمهمة الجهاز الأمني الذي يضبط و ينظّم سلوك الأفراد ويضع لهم معايير السلوك الاجتماعي السّليم في ضوء ما تنص عليه الجماعة من قوانين غير مكتوبة تصوغها من خبرتها المتراكمة عبر الزمن، و تلزمهم بتطبيقها بما يتناسب مع نظمها وقواعدها وأهدافها وتفرض على من يخالفها وينحرف عن حدودها المرسومة أنواع من الجزاء الاجتماعي المتمّثل بالسّخط أو السّخرية، أو الاستهجان، أو الاضّطهاد والنّبذ ممّا يدفعهم للانصياع لها عن رضا وقبول طوعاً أو كراهية. فبذلك تكون بمثابة التّشريعات التنظيمية للمجتمع التي تنظّم علاقات أفراده مع بعضهم البعض وفق قوالب من التّصرفات والسّلوكيات المتّفق عليها والمقبولة اجتماعياً و المتّبعة بنظام وبدقة عالية فيما بينهم. فالمجتمع يفرض علينا طريقة حديثنا ونوع اللّباس وكيفية تناول الطعام، وطريقة تعاملنا مع الآخرين، وغيرها من التّصرفات التي من شأنها أن تضبط سلوكنا وتوجّهنا وفق معايير السلوك والآداب المتفق عليها. "فالآداب العامّة تمثّل صفة الحياة في الزّمرة أو الجماعة المحلية، و مهمّتها الضبط الاجتماعي لأعضاء المجتمع، سواء أكان هذا الضبط مشعوراً به أم غير مشعور به، وهذه الآداب العامة إمّا أن تفرض أنواعاً معينة من السلوك أو أن تمنعها، وإذا كانت وظيفتها المنع فإنّها تعرف باسم تابو أو المحظورات." (ماكيفر؛ بيج، د.ت، ص45).

وهنا تعدّ العادات بمثابة القانون غير المكتوب الذي يحدد الأوامر والنواهي التي يجب التقيد بها، ولأنّ العادات تنبع من وجدان جمعي فهي تعمل على تقوية أواصر المحبة و العلاقات الاجتماعية السّليمة والتضامن بين أفراد المجتمع بما يصب في وحدته واستقراره وتحافظ على تراثه وهويته وكيانه الاجتماعي، لذلك فهي ضرورة لتنظيم حياة المجتمع وبدونها يصاب بالخلل والفوضى وعدم التوازن وبهذا تصون كيانه وتحافظ على وحدته وتماسكه، هذا ما جعل العديد من الفلاسفة والعلماء يعتبرونها تقوم مقام القوانين الوضعية في المجتمع، فقد وصفها أبيقور ً بأنّها تعدّ في العصور الغابرة بمثابة الدستور الوحيد للآداب الأخلاقية فكل شيء تعوده أهل تلك العصور كانوا يعتبرونه حقاً ثابتاً ً وذو مصدر سماوي هذا ما ترتّب عليه إنّ جزءاً عظيماً من حياة الإنسان كان خاضعاً لحكم العادة. (عويضة، 1994، ص62).

2. **الوظيفة الاقتصادية:** تتجسّد أهمية الوظيفة الاقتصادية للعادات في أنّها تهيئ للمجتمع ولأفراده حياة سهلة وميسرة بعيدة عن التعقيدات ومشقّة العناء في التفكير في كل موقف، فمواقف الحياة اليومية تحتّم على الفرد أن يتعامل مع الآخرين وفق سلوكيات معينة، وبتكرار تلك السلوكيات تتحول مع الزّمن إلى نشاط لاشعوري يحث الفرد على التصرف بطريقة تلقائية توفر عليه الوقت و الجهد العقلي المبذول في التفكير بكيفية التعامل مع مواقف أو أفعال تكرر حدوثها من قبل، فلا يجد نفسه حائراً أمام كل موقف يتعرض له. فمثلاً لا يحتاج لأن يفكّر كيف سوف يتعامل إذا صادف كبير في السّن وهو يحمل أغراضاً، أو كيف يتعامل مع أهله وأقرانه. وهذا ما نعنيه "باقتصادية العادات" فهي تقتصر عمل الفرد بوقت أقل، وبدقة أكثر، موفرةً عليه مجهوداً فكرياً وعضلياً في ممارستها." وفي هذا المنظور يظهر الإنسان أساساً، كما يقول الأنجلو ساكسونيون*[1]، كصانع أدوات، وعندئذٍ تبدو العادات و المعتقدات والمؤسسات تقنيات بين أخرى، ذات طبيعة فكرية : تقنيات في خدمة الحياة الاجتماعية وتجعلها ممكنة، مثلما تيسّر التقنيات الزراعية تلبية حاجيات التغذية أو التقنيات النّسيجية للحماية من التقلبات الجوية". (ستروس، 1977، ص409).

---

[1]– **الأنجلو ساكسونيون:هم مجموعة ثقافية سكنت انكلترا من القرن الخامس وكانوا يتألفون من القبائل الجرمانية التي هاجرت إلى جزيرة بريطانيا العظمى من أوروبا القارية.**

3. **الوظيفة الإرشاديّة والتّعليمية:** تعدّ العادات وسيلة تعليميّة هامّة في حياة الفرد والجماعة ففي ضوء احتكاك الفرد مع جماعته تقوم الجماعة بتلقينه خبرات ومعارف بما في ذلك قواعد السلوك والتصرّفات وتنقل هذا الكم الهائل من هذه الخبرات المتراكمة عبر الأجيال بحيث يستطيع الفرد التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ بالنسبة لديه وهذا ما ينمّي قدراته على التعامل مع مواقف الحياة التي يتعرض لها. كما تتجلّى الأهمية الإرشادية للعادات في أنّها أشبه بالبوصلة التي ترشد الفرد إلى كيفية التصرف المناسب و المتوقع منه في المواقف المختلفة بما يضمن له رضا وقبول وتأييد المجتمع، فتهديه إلى ما هو لائق وحسن ومقبول من الأفعال والأقوال كآداب تعامله مع الآخرين واحترامه لقواعد الحديث والتزامه بقواعد السلوك اللائقة ومراعاتها في المناسبات الرسمية كالأعياد و الأفراح و الأتراح، وتبعده عن السلوك السيء والضّار الذي ينعكس عليه سلباً وينبذه من قبل أبناء جماعته." فنحن لا نتعلّم احترام الكبير، أو احترام الوقوف في الصفوف، أو المحافظة على الهدوء في المكتبة أو المسجد، وتجنّب الضحك والمزاح في المناسبات الجادة، نحن لا نتعلم هذه الأشياء من خلال كتب أو قواعد مسجلة أو قوانين، إنّما من خلال استجابات أفراد المجتمع بالاستهجان أو التحبيذ لهذا التصرف أو ذلك". (إبراهيم، 1985، ص167).

4. **الوظيفة التنبؤيّة:** تشكّل العادات الإطار المرجعي الذي يعين الفرد على التنبؤ بسلوكيات الآخرين وتمكنه من تقدير النتائج لأفعاله وتصرفاته معهم في شتى المواقف التي يتعرض لها أثناء عملية التفاعل الاجتماعي.

فمعرفة الفرد بعادات مجتمعه تمكّنه من أن يتوقع استجابات الأفراد بنوع معين من السلوك المتعارف عليه وبما يتناسب مع هذه العادات وذلك أثناء معايشته ومشاركته لهم. وتتّضح أهمية الاعتماد على التوقعات الاجتماعية في إطار تعامل الناس مع بعضهم، عندما ينتقل الفرد من مجتمع إلى آخر مختلف عنه كل الاختلاف في ثقافته وعاداته، وطرقه الشعبية، فإذ لم يعرف كيفيّة التعامل مع أفراد هذا المجتمع فهذا سوف يشعره بالحيرة والاضطراب والقلق. فمثلاً قانون التّحية يتنوع بتنوع المجتمعات والعادات والتقاليد المنتشرة فيها. فطريقة التحية في بعض المجتمعات تقتضي بأن يقبل الرجل الآخر، أمّا بالنسبة للرجل الانكليزي فهذا السلوك يعتبر بالنسبة لديه من علامات التخنث، فقيام الانكليزي بهذا النّوع من السلوك في مثل هذه المجتمعات سيعرّضه للحرج. هذا ما يدفع الدبلوماسيين في أنحاء العالم_ عندما يسافرون إلى أقطار غير أقطارهم تختلف في أساليب المعيشة والعادات عن التي ألفوها_ إلى أن يكونوا على علم ودراية بعادات هذه الأقطار حتّى لا يصدموا توقعات أهلها ويكون سلوكهم مقبول ولائق، وحتّى لا يصدموا أنفسهم ممّا يرونه من عادات مخالفة لهم. (دياب، 1980، ص148-149).

5. **الوظيفة الجماليّة:** إلى جانب الوظائف السابقة سوف نتطرق للحديث عن وظيفة أخيرة لهذه العادات وهي الجمالية. إذ تتجلّى هذه الوظيفة في توجيه الفرد إلى كل ما هو لائق ومحبّب وجميل من التصرفات، وإرشاده إلى(فن الحياة) فن التعامل مع النّاس بأسلوب حسن وجميل ومجاملتهم ومشاركتهم في الأفراح والأحزان، فعن طريقها يعرف الفرد مثلاً كيف يعامل أبويه، أخوته، أقرانه، من هم أكبر منه سناً، رؤساءه في العمل، جيرانه، من يحترم، مع من وكيف ومتى يجب أن يمزح، أن يحترم الضيوف، ويحترم المواعيد، ماذا ومتى يجب أن يقدم الهدايا وفي أي المناسبات وغيرها من التّصرفات التي تندرج تحت مسمى آداب اللياقة العامة والّتي يقال عنها بالأوروبية etiquette ايتيكيت أو protocolبروتوكول أو good manners شمائل حسنة. والجّدير بالذكر إن الوظيفة الجمالية تكرس العادات ببعديها:

1- الشكلي: كتقديم الهدايا، وتقديم المساعدات من نقود وأزهار وحلوى في مناسبات معينة.

2- المعنوي أو الروحي: أي جمال العواطف والمشاركة الوجدانية بين الناس .(دياب،1980، ص146-147).

إذاً فجماليّة العادات تضفي على الحياة إيقاع منتظم من الرتابة، وتنشر ما يمكن أن نسميه بثقافة الذوق بين الأفراد في تعاملاتهم مع بعضهم البعض، وتمنح المجتمع طابع الرقي والحضارة.

6. **الوظيفة النفسيّة:** تمثّل العادات أنماط من السلوك يزاولها الفرد بطريقة تلقائية، والتي يكتسبها عن طريق التربية و التّقليد ومن الوسط الاجتماعي المحيط به، بشكل منظّم ومناسب مع غيره والذي بدوره يعزز لديه الشعور بالرضا والارتياح و بأن سلوكه مقبول اجتماعياً. فلا يكاد يخفى على أحد دور العامل الاجتماعي في حدوث اضطرابات شخصية لدى الفرد فمن النادر أن يخلو اضطراب نفسي من مظهر من مظاهر الاضطراب في السلوك الاجتماعي والتفاعل. فتصرفات الفرد الشاذة منها والسوية تعبّر بمكان ما عن اتجاهه نحو الآخرين واتجاه الآخرين نحوه. إذاً فالتفاعل الاجتماعي السليم بين الأفراد ومعرفة الفرد لدوره في العلاقة مع غيره تمكّنه من الإدراك الجيد للمشاعر والسلوك المقبول بحيث يتصرّف بموجب ما هو مقبول ويتجنب ما هو مرفوض وهذا ما يعزّز في نفسه مشاعر الارتياح والرضا والتقدير. وفي حال عجز عن التصرف بما هو ملائم فإنه سوف يواجه صعوبات ورفض وغضب وسخط من قبل الآخرين ويبدأ الشخص تدريجياً بفقدان ثقته بنفسه وما يرافقها من متاعب عصابية وخوف من الآخرين وعزلة واكتئاب.(ابراهيم، 1985، ص178).

الخاتمة:

و بناءً على كل ما سبق ومن خلال تطرّقنا لمكوّن هام من مكونات التراث الشعبي وهو العادات الاجتماعية والذي يشيع استخدامه في مجمل نشاطات حياتنا اليومية لباسنا، طعامنا، مناسباتنا، أعيادنا..الخ. بحثنا في ماهيّة هذا المفهوم وفي تاريخ نشأته وفي أشهر تصنيفات الباحثين له. باعتباره من أهم وأوسع ميادين التراث. وفي محاولةً منا للكشف عن أهمية هذا المفهوم في حياة الشعوب وفي طريقة تفكيرها وأساليب عيشتها توصلنا إلى أهم الوظائف التي يقوم بها والتي تمحورت في مجملها حول التعليم والإرشاد و الضّبط والتنظيم باعتبارها قوانين تنظّم حياة الأفراد وتوجّههم إلى كل ما هو سليم ولائق في تعاملهم مع بعضهم البعض ومع المواقف والأحداث التي تواجههم ممّا يساهم في تقوية علاقاتهم الاجتماعية واستقرار المجتمع وتماسكه وتحقيق رفاهيته.

الاستنتاجات والتوصيات

من خلال ما تقدّم توصّلنا إلى حقيقة أنّ العادات الاجتماعية بأوسع معانيها تشكّل ظاهرة من ظواهر الوجود الاجتماعي و مكوّناً هامّاً من مكوّنات البناء الثقافي لا يكاد يخلو منها أي مجتمع، وهي نتاج عفوي جماعي لخبرات عاشوها الأفراد عبّرت عن حاجاتهم وعواطفهم، وتوارثوها على مدى قرون من جيل لآخر حتّى باتت أشبه بدستور غير مكتوب راسخ في وجدانهم وعقولهم. تتنوّع لتشمل كافة ميادين الحياة ككل فالبعض صنّفها حسب انتشارها فنحن هنا نتحدث عن عادات خاصة وعامة وفردية وجماعية، والبعض الآخر حسب بقائها كالعادات قصيرة الأمد والعادات طويلة الأمد، والبعض صنّفها حسب سلبيتها وايجابيتها وبذلك نكون أمام الحديث عن عادات نافعة وضارّة.

ويمكننا القول إنّ العادات قديمة قدم الإنسان، ارتبطت بوجوده على هذا الكون، اخترعها عندما وجد نفسه بحاجة لقوانين تنظم أمور حياته وتلبّي حاجاته المادية والروحية وتحقّق له الانسجام مع أفراد مجتمعه وبالتّالي فهي لم تأت من فراغ، وإنّما ظهرت لتقدم صورة واضحة عن واقع المجتمع المادي والموضوعي وتعكس هذا الواقع كما هو، ورغم تباين

وجهات النظر حول منشأ العادات الاجتماعية إلاّ أن جميعها تؤكد على أنّ الإنسان هو من يصنع عاداته عن طريق التقليد أو التكرار لسلوكيات أبناء جماعته، أو عن طريق التجربة والتكرار للأنماط السلوكية التي تلبي رغباته وتشبع حاجاته فيتبناها وتصبح عادات متعارف عليها في المجتمع. كما تتنوّع وظائفها لتشكّل في مجملها صورة صادقة عن واقع الحياة وصميمها بأبهى صورها وتزيدها رونقاً، وهي ليست خالية من المعنى بل إنّ جميعا تدور حول هدف واحد هو تنظيم وضبط المجتمع وتوجيه سلوك أفراده بما يتناسب مع معايير حياتهم وما يحقّق لهم حياة مستقرة و انتماء ثقافي و اجتماعي لأمتهم. إنّها عبارة عن بروتوكولات لتنظيم الآداب العامّة وآداب اللّياقة التي تتضمّن قيماً أخلاقية سامية تجمل وتزيّن وجه الأمة. لذلك يجب المحافظة عليها من الاندثار والضياع فالمحافظة عليها هو بمثابة تأكيد للذات الثقافية التي تعدّ عاملاً من عوامل الوجود بالنسبة لأي مجتمع. غير أنّ مجمل العادات قد ترتبط بصورة عامّة بظروف المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وبتطوّر الأزمنة، لذا من الممكن أن تتلاشى نهائياً أو تتغيّر في بعض ملامحها بتغيّر تلك الظروف. هذا يدعونا إلى ضرورة إنشاء مراكز معنية بحفظ مواد التراث بما يحمله من عادات وتقاليد وفنون الشعبية، وإعادة إحياءها من خلال عرضها عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة (التلفزيون– الراديو– والعروض المسرحية– مواقع تواصل اجتماعي). والاستفادة أيضاً من خبرة كبار السّن كونهم حاملين للتّراث وناقلين له بنفس الوقت. بالإضافة إلى التّشجيع على إدخال مواد التراث في المناهج التربوية والتعليمية في المدارس والجامعات باعتباره يشكّل جزءاً من ثقافتنا وهويتنا.

المراجع

1- إبراهيم، عبد الستار. *الإنسان وعلم النفس*. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985.

2- ابن خلدون . *المقدمة*. (ط1)، تحقيق عبد الله درويش . دار يعرب، دمشق، 2004.

3- أمين، أحمد. *قاموس العادات والتقاليد و التعابير المصرية*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

4- باناتي، تشارلز. قصة العادات والتقاليد وأصل الأشياء . (ط1)، ترجمة مروان مسلوب، دار الخيال، بيروت،2003.

5- البكر، محمود مفلح. *البحث الميداني في التراث الشعبي (عرض – مصطلحات ، توثيق ، مقترحات ، آفاق)*. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009.

6- الجوهري، محمد. *الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية* . ج1. دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983.

7- الجوهري، محمد. *دراسات في علم الفلكلور*. (ط)1،عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1998.

8- الجوهري؛محمد، شكري؛ علياء، الخولي؛ حسن أحمد، عثمان؛ سعاد، الفرنوانى؛ منى، عبد الحافظ؛ ابراهيم. *مقدمة في التراث الشعبي المصري*. (ط1)، د.م، 2006.

9- الحسن، محمد احسان. *موسوعة علم الاجتماع*. الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1999.

10- حني؛عبد اللطيف، سلطوني؛سهام. *عادات الاحتفال بدورة الحياة في منطقة الطارف مرحلة الميلاد أنموذجاً .دراسة ثقافية*، مجلة الذاكرة تصدر عن مخبر التراث اللغوي و الأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد العاشر،2018.

11- دوركهايم، ايميل. *الانتحار*. ترجمة حسن عودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.

12- دياب، فوزية. *القيم والعادات الاجتماعية(مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية)*. دار النهضة العربي، بيروت، 1998.

13- راجح، أحمد عزت. *أصول علم النفس*. (ط7)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.

14- ستروس، كلود ليفي. *الانثربولوجية البنيوية*.ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،1977

15- شبانة، محمد عبد الفتاح. *اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق*. مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.

16- صليبا، جميل. *المعجم الفلسفي*. ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

17- طه، عبد القادر؛ قنديل، شاكر عطية؛ أبو نبيل، محمد السيد؛ محمد، حسين عبد القادر؛ عبد الفتاح، مصطفى كامل. *معجم علم النفس والتحليل النفسي*. (ط1)، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).

18- عزت، أحمد راجح ، *أصول علم النفس*. (ط7)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ،1968.

19- عويضة، كامل محمد. *أبيقور مؤسس المدرسة الابيقورية* .(ط1) ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

20- فايزة، اسعد. *العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة- مقاربة سوسيو انثربولوجية لعادات الزواج والختان مدينتي وهران وندرومة انموذجاً*. رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم علم اجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2011.

21- ماكيفر؛ ييج، شارلز. *المجتمع*. ترجمة علي أحمد عيسى. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).

22- مسعود، جبران. *معجم الرائد* .(ط7)، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

23- معتوق،فريدريك. *التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية (بحث ميداني في الثقافة الشعبية في شمال لبنان)*. (ط1)، جروس برس، طرابلس، 1986.

24- المطور،عزام أبو الحمام،*الفلكلور التراث الشعبي (الموضوعات-الاساليب-المناهج)*. (ط1)، دار أسامة للنشر، الأردن،2007.

25- هولكتراس، إيكه. *قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور*. ترجمة محمد الجوهري وحسن الشاهري ،(ط1)، : دار المعارف بمصر، د.م، 1972.

المراجع العربية باللغة الاجنبية:

1-Amin, Ahmed. Dictionary of Egyptian Customs, Traditions and Expressions, Hindawi Foundation for Education and Culture, Cairo, 2012.

2-Al-Bakr, Mahmoud Mufleh, field research in folklore (presentation - terms, documentation, suggestions, prospects). Publications of the Syrian General Book Organization, Damascus, 2009.

3-Al-Hassan, Muhammad Ihsan, Encyclopedia of Sociology. Arab House of Encyclopedias, Beirut, 1999.

4-Aweidah, Kamel Muhammad, Epicurus, founder of the Epicurean School. (I) 1, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1994..

5-Banati, Charles. The story of customs, traditions and the origin of things. (1st ed), translated by Marwan Masloub, Dar Al-Khayal, Beirut, 2003.

6-Durkheim, E-mail, Suicide. Translation by Hassan Odeh, Publications of the Syrian General Book Organization, Damascus, 2011.

7-Diab, Fawzia, Social Values and Customs (with a field study of some social customs). Dar Al-Nahda Al-Arabi, Beirut, 1998..
8-Ezzat, Ahmed Rajeh, The Origins of Psychology. (7th Edition), Dar Al-Kateb Al-Arabi for Printing and Publishing, Cairo, 1968..
9-El-Gohary, Muhammad, The Scientific Study of Popular Beliefs. C1. House of Culture for Publishing and Distribution, 1983..
10-El-Gohary, Muhammad, Studies in Folklore. ((1st ed), Ain for Human and Social Studies and Research, 1998.
11-El-Gohary, Mohamed, Shoukry; Alia, Al-Khouli; Hassan Ahmed, Othman; Souad, Al-Farwani; Mona, Abdel Hafez; Ibrahim, Introduction to Egyptian Folklore. (1st ed.), d.m., 2006..
12-Fayza, Asaad, Social customs and traditions in the urban environment between tradition and modernity - a socio-anthropological approach to the customs of marriage and circumcision, the cities of Oran and Ndroma as a model. PhD Thesis, Department of Sociology, Faculty of Social Sciences, Oran University, 2011..
13-Hani; Abdel-Latif, Saltouni; Siham, the customs of celebrating the life cycle in the El Tarf region, the stage of birth as a model. Cultural study, Al-Zakira magazine issued by the Linguistic and Literary Heritage Laboratory in the southeast of Algeria, issue ten, 2018..
14-Holctras, Eke. Dictionary of Ethnology and Folklore Terms. Translated by Muhammad Al-Gohari and Hassan Al-Shahri, (1st edition), Dar Al-Maaref in Egyp.,
15-Ibrahim, Abdul Sattar. Human and Psychology. The National Council for Culture, Arts and Letters, 1985.
16-Ibn Khaldun, Introduction. ((1st ed), achieved by Abdullah Darwish. Dar Yarob, Damascus, 2004
17-McIver; Young, Charles, Society. Translated by Ali Ahmed Issa. The Egyptian Renaissance Library, Cairo, (d.T.(
18-Masoud, Gibran, Al-Raed Dictionary (7 st ed), Dar Al-Ilm for Millions, Beirut, 1992..
19-Maatouk, Frederick, Lebanese Folk Traditions and Customs (Field Research on Popular Culture in North Lebanon). (1st ed.), Gross Press, Tripoli, 1986..
20-Rajeh, Ahmed Ezzat, The Origins of Psychology. (7th Edition), Dar Al-Kateb Al-Arabi for Printing and Publishing, Cairo, 1968..
21-Strauss, Claude Levy, Structural Anthropology. Translated by Mustafa Saleh, Publications of the Ministry of Culture and National Guidance, Damascus, 1977.
22-Shabana, Mohamed Abdel-Fattah, Japan: Customs, Traditions, and Addiction to Excellence. Madbouly Library, Cairo, 1996..
23-Saliba, Jamil, The Philosophical Dictionary. C2, Lebanese Book House, Beirut, 1982..
24-Taha, Abdul Qadir; Kandil, Shaker Attia; Abu Nabil, Mohamed El-Sayed; Mohammed, Hussein Abdel Qader; Abdel Fattah, Mostafa Kamel, Dictionary of Psychology and Psychoanalysis. (1st ed), Dar Al-Nahda for Printing and Publishing, Beirut, (d. T.(
25-The developer, Azzam Abu Al-Hamam, folklore, folklore (topics - methods - curricula). ((1st ed), Osama Publishing House, Jordan, 2007..
1972.